الأدب الشعبي في الكويت

للأســـتاذ أحمد طه السنوسي

إن إمارة الكويت بحكم بيئتها ونشأتها وتكوينها قد خلقت لهـا أدباً شعبياً مشبعاً بظروف تلك النشأة والبيئة والتكوين ، فهي تقع بين بصرة العراق في الشمال والغرب ، والمملكة العربية السعودية في الجنوب بمتوسط من المنطقة المحايدة ، والخليج العربي (الفارسي سابقاً) في الشرق ؛ وهي إمارة حديثة التكوين تاريخها لا يتجاوز الثلاثة قرون ، وقد كان أكثر أهلها من القبائل النجدية والأحسائية ، وبذلك نرى أن مرتعها عربي قح ، كما نرى أن النجدية والأحسائية كان لهـا أكبر الأثر في أدبها الشعبي ، فبدا قوياً صريحاً فيه الإلهام الصحراوي وفيه الصلابة البدوية وفيه شيء من الجفاف ، ولكن الصحراء كثيراً ما أضفت عليه الجمال البارع وأمدته بروحها البريئة في غمرات عذبة حنون . وقد طرق الأدب الشعبي الكويتي جميع أغراض الشعر فأجاد فيها وأبدع ، ولكنه لم يبلغ في ذلك شأواً بعيداً ؛ لأن الكويتيين لا يولونه كثيراً من العناية والتدليل ، إذ أن شعراءهم الكبار بأدبهم وأشعارهم الفصحى قد طغوا بها بعض الشيء على ذلك الأدب الشعبي المسكين .

بيد أن هناك فئة ممن استهوى الأدب الشعبي أفئدتهم وحفزهم على تشجيعه ، فقامت في سبيله مدرسة ابن فرج وابن فوزان ، وامتازت تلك المدرسة بإلهام عذب وخيال خصب ومعان سامية ووشي جذاب ، وبعد ذلك ولجت الكويت باب التطور والارتقاء وكانت على بابه منذ قليل ، وتطورت فيها الحالة الثقافية والعلمية والأدبية ، وكان قمينا بالأدب الشعبي آنذاك أن يثب بنفسه ويطفر الطفرة اللائمة للتطور ، ولكن التطور الحديث أضعف شوكة الأدب الشعبي على عكس ما كان متوقعا .

وأنا أرى أن السبب في ذلك أن النفوس كانت مهيأة لاستقبال التطور استقبالا أنساها كل شيء ، كما أميل إلى القول بأن الأدب الشعبي كان في بدايته قوياً صارماً فيه صلابة وجفاف إن استثنينا بعضه ، ونفسية الشعب الكويتي نفسية ساكنة وديعة تميل إلى خيال الحقيقة لا إلى حقيقة الخيال ، كما أن تطور الحالة الأدبية والعلمية لم يكن تطوراً كاملا تم في لحظات ، بل ما زال إلى اليوم يدأب في دربه اللاحب ليصل إلى الأنوار والأضواء وبذلك وجد التطور هوى في النفوس الكويتية ، هوى فيه مقدمات وتمهيدات تدعو للتطلع والاستطلاع عما يبدو من أضوائه في ثنايا الأفق . هذا وكانت النفوس متعطشة إلى الاستزادة من الثقافة والعلم ، فوجهت همها لتكملة ما يأتي به التطور ولمساعدة أشعته على النفاذ ولحشد جموع استقباله ، فتضاءل الأدب الشعبي وهو ينظر كاسف البال إلى ذلك الأعراض ، ولكنه ربما يسره في قرارة نفسه منتظراً ساعة النتيجة السعيدة لحداثة التطور ، فتؤوب إليه النفوس وتدفع العلوم الطريفة والفنون الجديدة مريديه لأن يحتفلوا ويحفلوا به ويهيئوا له الظرف المناسب ليأتي بالثمرة المرجوة منه والتي آثرت بعض أكلها حين لاقى الإقبال والابتسام ، فكان مهداً لإصلاح النفوس وكان حافزاً للهمم وكان دافعاً للحماسة وكان موقظاً للعزيمة والبسالة كما كان سبيلا للدعاية الصالحة —

* * *

كان السيد يزهو بدلاله ويرفل في غلائل نخوته ، وكان يومه مشرقاً مزدهراً ، ونظر أحد الفقراء في الكويت إلى مباهجه ومسراته التي حرم منها ، ثم أخذ يقول :

وين للقماش اللي من الدر جينا الله عليهم وإن كانوا من تحينا
هذي السنة صارت علينا قضائح أنتم تبون إفلوس واحنا مفاليس
قل أنتم أهل الجودات وأهـل المروة
مـــير شيء حصث فيكم يا ناسي توه
أشوف بالوقت تاخدونا قوه يا ما حديتونا بسجر ودبابيس

ونحن إذ نستمع لهذا القول قد نفهمه وقد لا نفهمه وأستطيع أن أشرح بعض المعاني لبعض كلماته على سبيل المثال ليتسنى لنا فهمه والحكم عليه .

فوين : أين ، القماش : اللؤلؤ ، اللي : الذي ، جينا : أتينا ، تبون : تريدون ، إفلوس : دراهم ، مير : لكن ، توه : الآن ، حديتونا : سقتونا ، والسجر جمع سجر : عصا ملوسة الرأس ، والدبابيس جمع دبوس وهو عصا في رأسها قطعة من قار أو حديد .

ولندع هذا ونظر إلى هذا الشعر الشعبي الذي طالما أحبه الأطفال الكويتيون ورددوه .

يا هل (أهل) الشرق سروا بي على الفيصرية (حي كويتي)
عضـــدوا لي وتلقون الأجـــر والثواب
واطلبوا دختر (طبيب) المشـــاق يكشف على
كود (يمكن) يمسح على جرحي ويبرا سوابي

وقال الشاعر الشعبي الكويتي الكبير (فهد بورسلي) :

يا طـــير يلي كلمـــا طار زاد العنا والهم فيّه
من يبتلي بحب البـــكار (الأبكار)
ضاجت (ضاقت) عليه أرض وسيعية (واسعة)
وقفت أنا والبـــال محتار يا أهل النظر ردوه عليّه
مامن جريب (قريب) يأخذ النار من ساعي العين السجية

وفهد بورسلي أضعه في مرتبة كبرى من الشعراء الشعبيين في الكويت ، ولكن المأخذ الأوحد الذي آخذه عليه هو أن شعره يشوبه قليل من الانحلال في تركيبه ، بيد أنه شاعر له من لطف المشاعر وجميل الإشارات وبديع اللفتات وبهيج المعاني ما يقدمه في صفوف الشعراء .

وقال محمد فوزان :

أهلا عدد ما هلوا بالمـــاجد أوعدد ما ركب سري يخبط البيد
بكتاب من نظمه سواة القلايد وصرصع بالدر يزهى على النبد

وقال عبد الله الفرج في الغزل :

عزيز لمـــثلي ما يوني ونينه ومسهد بين الشجاف والأبعاد
ما يختفق منـــه غرام يبينه توجه إذا نام الخليلون يزداد
ويلومك اللي ما بدا بالضغينه ولا شفف قلبه من الخود مياد

ولي ملاحظة على أقوال هذين الشاعرين الكبيرين (ابن فرج وابن فوزان) فكثيراً ما أرى شعرهم محتفظاً بالصبغة الفصحى ، فتاق فيه كلمات عربية فصيحة كثيرة لو أنعمت النظر في قراءتها وفي بحثها على حدة ألفيتها ترجع بالفكر إلى كلمات الشعر الجاهلي ، أما وقد زار ابن فوزان بعض البلاد الراقية كلبنان الجميل ووجد الرقة والعذوبة في الألفاظ الشعرية السهلة لا في التضخم الجاهلي ، فسوف يتحول وسوف يضيق بدائع الثقافة الجديدة مع الألفاظ المحرية على شعره الشعبي الرائع فيزداد حلاوة وعذوبة ويزغ لنا من جديد مختالا حالماً تسرح العقول في سكرات من الحنين حين تتلاعب به لوامع الشفاه .

وقال أحد شعراء الكويت النبطيين :

لاتبتلي ذا الناس في شيل الأثقال تبلى بهم مثل الطفل في رضاعه
لو طاح منهم طايح ما حد شال حمله ولو شول لك الله كراعه
رجل بليا مال ما هو برجال لو هو على الشدة طويل ذراعه

وقال أحدهم في الهجاء :

ناس أراذل والسنتهم حدايد والدهر مطيعهم اقبال وتصعيد
واللي على قلبه مدق الحايد والمعتني جوفه يحب الوالايد

ومن طريف الغزل قول أحدهم :

شاقول يا هل الهوى شاقول وهـذا نصيبي من الخلاني
ومضمراً والشـــعر منسول ليجيت أحب النحر غطاني

والحب بفتح الحاء عندهم هو التقبيل ، ولدل تلك الكلمة مستعملة في الجو الريفي المصري . ونستطيع أن نلمس الجمال والبراعة في الشطر الثاني من البيت الثاني ، إذ قد طغى جماله فتزاحم في الفكر أخيلة حالمة تشعر المرء بالانتعاش في قرارة نفسه ، كما تشعر عند تلاوة الشطر الأول من نفس البيت .

أما الرثاء ، فإن الكويتيين كما عرفتهم لا تحتمل الأحزان والأشجان مكانا من قلوبهم ، وإن احتلت فالصمت والهدوء ديدنهم . ولقد تعجب إذا مات لأحدهم عزيز فتراه ساكناً لا يفعل ما يفعل سواه في متباين الأقطار العربية . وقد تعجب لدهشته من كثرة عباراتك المواسية ورثائك وتفجعك من هول المصاب؟ لأنه يرى الموت أمراً محتوماً ولا راد لقضائه ، فهو فيلسوف في هذا الظرف الحزين ، وبالرغم من ذلك فقد اخترق الأدب الشعبي الطريق ليبين لنا أن الكويتي وإن كان فيلسوفاً ساكناً إلا أن في فؤاده من الحزن دمعاً لا يتعدى نطاق القلب وسويدائه ؛ فأجرج الشعراء دوراً شعبية في الرثاء تؤثر في النفس تأثيراً عميقاً ، من هذا قول أحدهم :

الله من خطب دهانا بالأبكار أدمى القلوب تشب فيها السماير
يا موت حسبك من تسقيه الأحرار
كاسات ليمات تفت المـــرايز
وسط اللحود وبيت ملتف الأحجار
في ذمة المولى رهين القـــبايز

ولقد احتل الأدب الشعبي مكانة عظمى من الأغاني والأناشيد